

رمزية الشخصية في رواية الغيمة الرصاصية للدميني "دراسة نقدية"
الباحثة/ هيفاء حامد سند العصيمي

باحثة بجامعة أم القرى، مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصبه أجمعين
وبعد

يعد النص السردي نصاً ثقافياً موازياً للحياة، وعلى الرغم من أنه لم يُنقل كل تفاصيلها فإنه يُقدم إلى جانب وظائفه الجمالية والثقافية وظيفة في غاية الأهمية، وهي كتابة الحياة نفسها من وجهة نظر فنية، لأنه الوجه الآخر للتاريخ الذي يُقدم لقارئه مجموعة من الخطابات القادرة على استيعاب زخم الحياة في فترة زمنية محددة بقضاياها المطروحة، وإشكالياتها العالقة، وهو بكل ما يمتلكه من إمكانات فنية وتاريخية مادة ثرية يُشكلها المبدع بفنية تتماس مع الواقع ولا تطابقه.

ويبدو جلياً أن الروائي يخلق شخصياته بحرفية عالية، ويلبسها ثياب أفكاره ورؤاه، بحيث يجعلنا نراها خارجياً وداخلياً، وإن كانت كائنات من ورق بحسب بارت بيد أن شعوراً قوياً يجعلنا ننظر أننا صادفناها في مكان ما، لذلك كان السؤال الذي يشغلني مع كل رواية أقرأها هو: كيف يختار الروائي شخصياته؟ وهل اختيارها يكون بحسب الموضوع، أم أن هناك أموراً أخرى خفية في نفسه جعلته يختار هذه الشخصية دون سواها ويشعر بوجودها، ومن ثم كتبها في نصه؟ وكيف يُمكن لشخصية واحدة أن تكون رمزاً للمعنى ونقيضه في آن؟ ثم هل يُمكن أن يسهم تنشيط نصوص الرواية في خلق شخصيات استثنائية عجائبية؟ وأخيراً ما سبب غياب "الشخصية الإشكالية" في رواياتنا المحلية؟ وهل تفردت شخصيات رواية الدميني عن نظيراتها في الأدب السعودي؟

نتيجة لذلك، فإن البحث سيحاول الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها مما له صلة بموضوعه الذي يبحثه، وهو رمزية الشخصية في رواية الغيمة الرصاصية لعلي الدميني، ونظراً لطبيعة هذا العنوان فإن الدراسة تعتمد على تحليل الشخصيات، مع

الاهتمام بدراسة البنى اللغوية، التي تسهم في كشف جوانب الشخصيات، وقراءة رموزها المتعددة. وعلى هذا الأساس تتبني الدراسة على مبحثين، الأول: يتناول الشخصيات والانشطار المرآوي، وسيكون البحث فيه عن الانشطار المرآوي وكيفية توظيفه في الرواية، وتقنية الفانتاستك الخيالية، أما الثاني فيخصص للبحث في شخصيات الغيمة الرصاصية، من حيث التعريف بالشخصية على نحو عام، ثم الشخصيات ودلالاتها الرمزية، وعلاقة الشخصيات بالأحداث على نحو أخص. وبعد، فالله أسأل أن يمنحنا الرشد والهداية، وأن يجزني بالصواب إحساناً، وبالخطأ غفراناً. والله ولي التوفيق

المبحث الأول: الشخصيات والانشطار المرآوي:

تبدأ رواية الدميني بشكل طبيعي ما يلبث أن يتحول إلى محكي عجائبي خارق للعادة، فيتنشئ النص ويُقسم كما يلي: الحكاية الإطار وهي حكاية سهل الجبلي، والحكاية الناشئة منها وهي حكاية شخصيات روايته، وخروجهم من النص الأصلي، وأسرههم لكاتب نصهم سهل الجبلي.

لقد انتشر مفهوم الانشطار كثيراً مع بروز ما يُسمى بالرواية الجديدة، " إلا أن انتشاره قد ازداد مع الرواية ما بعد الجديدة في بداية السبعينيات، وقد اهتم النقد الجديد بهذه الظاهرة إلى درجة أن هناك من غدا متخصصاً فيها، كما هو الشأن بالنسبة لداالانباش وريكاردو، وإذا كانت ظاهرة الانشطار المرآوي قد تطورت مع الرواية الجديدة، إلا أنها قديمة قدم الحكى والكتابة السردية ذاتها، فقد وجدت في كتابات إدغار ألان، وفي مسرحيات هاملت، خاصة الملك لير، التي وظفت فيها تقنية المسرحية في المسرحية، بطريقة تلخص فيها الثانية الأولى وتعكسها¹. لكن السؤال هنا هو لماذا يلجأ الروائي لتشطير نصه ووضع في إطارات متداخلة، هل ليثبت لنا مهارته الإبداعية الفنية في الكتابة فحسب، أم أن هناك نوع معين من المواضيع التي لا يُمكن معها الكتابة بأسلوب الرواية المتعارف عليه؟ وهل كان لانشطار النص أثر على العمل الإبداعي أم أنه أقتصر على الوظيفة الجمالية؟

اقتضت طبيعة موضوع الرواية، وهو حرب الخليج الثانية، لجوء الروائي لهذا الأسلوب الفني، الذي مكنه من معالجة مجموعة من القضايا السياسية، والاجتماعية، والثقافية، التي خيمت على تلك الفترة، فكان الرمز وتشطير النصوص وتداخلها وتباينها، مناسباً لتعقد الموضوعات المطروحة بحد ذاتها.

سمح هذا الأسلوب بامتداد زمن الرواية، ومن ثم حركة الشخصيات بين الماضي والحاضر والمستقبل، ففي جزء الرواية المشطور تأتي تفاصيل ترفد الإطار العام ولا تنتقله، فيأتي الحكى بالتناوب بينهما، تاركاً المجال للمتلقي ليربط بين النص الحاضر والمتخيل، ويفك رموز العمل المتشعبة.

¹ الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عبد المجيد الحسيب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٤م،

ومن بين وظائف انشطار النص "الوظيفة الكاشفة لبعض القضايا الغامضة أو المحذوفة"^١ فمثلاً عند حديثه عن حرب الخليج في النص الإطار، نقل لنا الراوي حوارات الأصدقاء جاسم، وخالد، ومصطفى، وأبو أنس، عن أسباب الحرب بشكل سطحي بينما في النص الثاني، وهو حكاية صراعات أهل الوادي نلاحظ عمق أكبر في طرح الأفكار، ولجوءه للرمز، وكشفه المستور عن أكثر القضايا حساسية ومناقشتها، بطريقة تحقق التكامل بين النصين.

أسهم انقسام النص إلى، "محكي داخل محكي أشمل" في تنوع الرواية بالمحكيات المتعددة، وتفسير أفعال الشخصيات إزاء الحوادث المختلفة، فقد حصلت تجربة السجن لسهل الجبلي في النصين الأول والثاني، لكن فعله اختلف في كل منهما ففي النص الإطار أنكر علاقته بالتنظيم، و المجلة والوثائق السرية، أما في النص الثاني، فقد استغل وجوده في المغارات، للبحث في نقوشها وإكمال النص، وشطب أجزائه المحرفة، وكشف المتسبب في تحريف النص بهذا الشكل، قاده ذلك البحث إلى نتيجة مفادها أن حياة أهل الوادي المنغلقة السلبية، وشخصها من أصحاب المصالح هم من كتبوا النص بتلك الصورة، واشغلوا أهل الوادي بالحروب والنزاعات.

* تقنية الفانتاستك الخيالية:

ترتبط هذه التقنية بتقنية الانشطار المرآوي لما لهما من قدرة معاً على خلق قصص خيالية متداخلة يجمعها أطار قصصي عام أشمل وأكمل.

جنوح الروائي بشكل كامل للخيال ولويد للقلق الذي يعصف بداخله، فيعزف نتيجة لذلك عن العقلانية الواقعية في تناوله، لما لها من صرامة لا يستطيع معها طرح ما التبس عليه من أفكار وقضايا، فالخيال/ الرمز/ اللا معقول، هو معادل نفسي للكاتب من شأنه إعادة التوازن الداخلي له، "ولأهمية الأسلوب الفانتازي نجد أن هناك محاولات كثيرة لتأصيله تُرجعه إلى قرون سابقة على القرن الثامن عشر الميلادي، وقد اعتبر كثير من الباحثين ومنهم تودوروف وكاستيكس أن ظهور ألف ليلة وليلة كان بمثابة ميلاد لعالم خاضع لقوانين مختلفة عن قوانين العالم الواقعي"^٢.

^١ المرجع السابق، ص ١١٢

^٢ فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، بو شعيب الساوري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٤م، ص ١١٩

يبدأ النص الإطار بكتابة سهل الجبلي روايته، وبعد انتهائه من كتابة آخر جملة بها، أعادها إلى موضعها في الدولاب الأسود القابع في مخزن الكتب، واتجه لغرفته لينام، تسللت الشخصية الرئيسة "عزة" من نصها/رواية سهل الأصلية إلى غرفة سهل لتضع جسدها بينه وبين زوجته، تنتهي تلك الليلة بتفاصيلها الغربية، ويذهب سهل في صباح اليوم التالي لمقر عمله في البنك، فيفاجأ "بمسعود الهمداني" - من هنا تبدأ غرابة الحكاية- وهو من أبطال نصه أيضا، يطلب منه قرض ليسدد ديات القتلى وأخوة عزة، ويلوم سهل لأنه هو الذي كتب كل تلك الصراعات في نصه، يخرجان من المكتب ليرى سهل ضمانات مسعود على أرض الواقع، لكن مسعود يختطفه للصحاري، لتبدأ الحكاية الثانية، التي يصوغها أبطال النص بطريقتهم، ويتمردون على نصهم وعلى كاتبه، يجد سهل نفسه عالقاً في الوادي لا يستطيع الرجوع لواقعه إلا بعد اكتمال أجزاء النص، و إخراج عزة منه لتدل أهل الوادي على موقع السد، وعلى الرغم من غرابة الأحداث في الرواية، فإنها لامست الواقع، وصورت مرحلة مفصلية في تاريخنا السعودي، وناقشت قضايا جوهرية تمخضت عنها تلك الفترة، ويمكننا القول بنجاح تجربة الكاتب الروائية وبلوغ أهدافها.

استخدام الفانتاستك في هذا العمل يضعنا أمام عدة تساؤلات منها هل هذا الحضور نابع من استلهام التراث النثري العربي الغني بالعجيب، أم أنه جاء استجابة لحاجة جمالية اقتضاها تطور الرواية العربية في أطار محاكاتها للرواية الغربية؟ وكيف أثرت الخيالية على شخصيات الرواية وعلى الدور الذي تقوم به؟

اعتمد كتابنا على التراث القصصي العربي ليحاكوا ما بدأه أسلافنا من قصص واقعية، وخيالية، وأسطورية، و " اتجه الروائيون نحو تأصيل الرواية العربية عندما اكتمل الوعي القومي، وتحررت الشخصية العربية، والعقل العربي من الغزو الفكري الغربي، وتكاملت تجربة الرواية العربية، فأدرك الروائيون العرب مدى الهوة الفاصلة بين التراث العربي، والرواية الحديثة، و غربة الأشكال الغربية النابعة من ثقافة غربية، فقصد الروائيون العرب إلى استكمال ثقافتهم القومية والرجوع إلى تراثهم وإنهاء غربتهم في الأشكال الأدبية الغربية، ووجدوا في تراثنا القصصي العربي الأشكال

والموضوعات والقيم والأساطير والحكايات والرموز العربية الأصيلة، التي يُمكن إحيائها و عصرنتها في روايتنا العربية الحديثة^١ .

استخدم الكاتب هذه التقنية بطريقة أراها جيدة فقد تمكن من طرح موضوعه الرئيس، وهو كيف يمكن أن يُختطف تاريخنا، ويُحرف، ويكتب بأيدي أفراد تقودهم مصالحهم الذاتية، فيقتل بذلك أرث الأمة الحضاري ويشوه، ولا يبقى لها منه سوى صورته البشعة، ولا يخفى ما في هذا الموضوع من تشعب وحساسية، ولكن أسلوب الكاتب الفنتازي الرمزي مكنه من مناقشة الموضوع وكشف ملامحاته، وقد اكتفى بطرح الأفكار والقضايا بدون وضع حلول لها وهو ما يُدخل هذا العمل ضمن ما يُسمى بـ"رواية الفكرة" ليعترك للقارئ حرية تأويل العمل، وإعادة النظر في أسباب الصراعات والانقسامات!

استفاد الكاتب من هذا الأسلوب في خلق شخصيات تقوم في تكوينها على البعد الفنتازي الغريب، بحيث تقدم للقارئ الأفكار بشكل غير تقليدي، غامض ومبهم، ومثال ذلك شخصية عزة فعند اختفاء سهل تقول زوجة سهل عنها: "طغت غيمة بائسة على محياها، وبدت كطفلة فقدت أهلها، وانتحبت طويلاً، وقالت وهي تكفكف دموعها: إن كياني مرتبط به، وها هو يختفي ويتركني في قصته سجينة للحروف والنسيان... قررت عصر أحد الأيام اصطحابها إلى المستشفى المركزي فطلبت سيارة تاكسي، وحملت الكراسية، ووضعتها بجانبها في المقعد الخلفي للسيارة، وبدأت أتحدث معها بلطف ومودة، حتى خرجت من الكراسية، دخلنا المستشفى نصفها يمشي، ونصفها معي في الكراسية، قابلت الطبيب وأوضحت له الأمر فدب الرعب في قلبه، وقال لي بصراحة وهو يرتجف: الطب عقل البشرية يُعالج الحالات المعقولة، أما حالة هذه المريضة فهي أسطورة ولا أملك لها علاجاً...^٢ ."

يصور سهل نورة في بعدها الفنتازي فيقول: "أخرجت من الكيس نثار الجرار القديمة، ووضعت القاعدة لأبدأ بتشكيل الهيكل، ففز فرح طفولي غامر من عينيها وهي تتأمل القطع المتناثرة، ورفعت صوتها: هذه أطراف أساطير جداتي الملكات، ولعلك ما

^١ اغتراب الذات وحادثة الموروث، جمال سعد محمد، أبحاث المؤتمر الأدبي الثاني ديرب نجم مشترك

٢٠٠٣م، ص ٥١

^٢ الغيمة الرصاصية، علي الدميني، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٩٥

تزال مولعاً بأثار الماضي وتسعى لترميمه بها. أحببتها: إنني أنبش الأثر وأعيد تشكيله لا ترميمه فحسب، وأطمح في إعادة قراءته من جديد^١ .

وفي قولها عن نفسها " توّجت قلبي بالراعي فأصبحت مرعى، توّجت قلبي بالفلاح فصرت شجرة، ولما اقترب منه عمران غدوت إبريقاً للوضوء، بحثت عن سهل فألفيتي كلمات مبعثرة في نصه...^٢، وغير ذلك من الصفات الخارقة للعادة التي البسها الكاتب لنوره ولجدياتها وحكايتها قبل الوصول لمحطة أم سالم^٣ .

أما مسعود الهمداني وهو أحد الشخصيات الرئيسية، يجعلنا اسمه بهذا التركيب نعود للرحالة ابن الحائك أبو محمد الهمداني، صاحب كتاب "صفة جزيرة العرب" الذي يصف فيه جغرافية الجزيرة العربية وحياتها النباتية ويعدّ ما فيها من القرى والقبائل، وذلك في القرن الرابع الهجري، واختيار الكاتب لهذه الشخصية ليس من قبيل المصادفة، بل لأنها تدخل في صلب موضوع الرواية وهو التركيز على الصراعات الدائرة في الجزيرة العربية، لذلك كثر في الرواية وصف للوادي بأرضه، و ينابيعه وأشجاره، وقبائله، ونظامه الاجتماعي.

وقد ساعد أسمه - أعني مسعود الهمداني- وكذلك وصف لباسه وشكله، المتلقي في معرفة أن أهل الوادي هم سكان الجزيرة العربية، وأن الصراعات الواردة في الرواية تعكس الصراعات السياسية والاجتماعية والثقافية على ارض الواقع، يقول الراوي في وصف مسعود: " كان يرتدي ملابس شتوية مألوفة لي، وفي يده مشعاب من شجر العتم، وفوق هامته يقبع شماغ أسود، وعقال أبيض، وكنت حددت عمره في العشرين حين كان يرعى الغنم مع عزة...^٤ "

المبحث الثاني: شخصيات الغيمة الرصاصية:

تتضمن الرواية شخصيات متعددة كان لها دورها في صنع الأحداث ومن أهمها الشخصيات الرئيسية مثل: شخصية سهل الجبلي، نورة، ومريم، ومسعود الهمداني، والشخصيات المساندة مثل: جابر، ابن عيدان، الحراس.

^١ السابق، ص ٢٥

^٢ السابق، ص ٢٤٢

^٣ السابق، ص ٢٤١

^٤ السابق، ص ١٥

التعريف بالشخصية بشكل عام:

هناك فرق كبير بين الشخصية الروائية وبين الشخصية الواقعية، وكثيراً ما يقع الالتباس بين النقاد حولهما، فالشخصية الروائية ليس لها وجود واقعي كالشخص الواقعي، فهي مفهوم تخيلي يستدل عليها المتلقي من التعبيرات المستخدمة في الرواية، فشكلها وصوتها يتكون تدريجياً في الرواية بواسطة اللغة.

وتكتسب الشخصية الروائية أهمية بسبب تركيز الرواية على الإنسان وقضاياها، فالأفكار تحيا في الشخصيات، وتأخذ طريقها إلى المتلقي عبر أشخاص معينين، لهم آراؤهم واتجاهاتهم، وتقاليدهم في مجتمع معين، وفي زمن معين، ولذلك يرى بعض النقاد المعاصرين أن خلق الشخصية المُنقعة هو أساس بناء الرواية وسبب نجاحها^١.

وقد مرّت الشخصية الروائية بمراحل مختلفة عبر رحلتها التاريخية، "ففي عهد أرسطو كانت الشخصية ثانوية بالقياس إلى بقية عناصر العمل التخيلي، إذ إنها كانت خاضعة خضوعاً تاماً للحدث، وقد انتقل هذا التصور إلى المنظرين الكلاسيكيين^٢".

ومع تطور فن الرواية أصبح التركيز على الشخصية لأهميتها ومحوريتها، التي تتبنى عليها بقية عناصر العمل الروائي، بل لقد أصبح رسم الشخصية ينحو منحى نفسي فلسفي "فنجذ في بعض الروايات يسمي الروائي شخصيته بحرف فقط مثل كافكا في روايته القصر، وقد تحمل شخصيتين مختلفتين الاسم ذاته كما هو الحال في رواية فوكنز، وقد يُقدم الروائي شخصيته بلا أسم ولا ملامح ولا صفات فتكون مجرد صوت تحت ضمير المتكلم يسمعه المتلقي ولا يُمكنه تخيلها بما يوحي بأنها حالة غير محددة وربما فكرة مثل شخصيات رجااء عالم في روايتها خاتم.

وعند الحديث عن الأدب الروائي السعودي نلحظ غياب للشخصية الإشكالية المحلية، التي تخرج من نصها وتعيش مع المتلقي، فيشعر بأنها شخصية حقيقية مشّت في الطرقات وأكلت وشربت، لها آرائها وفكرها وفلسفتها، فالرواية الحديثة - كما هو معروف - ليست مرآة أمينة للواقع تسعى إلى التقاط المشاهد الجاهزة، بل ينهض المبدع بعبء ترتيب جزئيات الواقع، واضعاً الأشياء في سياقات جديدة، والشخصية هنا

^١ البناء الفني في الرواية السعودية، حسن بن حجاب الحازمي، جازان ط، ١، ٢٠٠٦، ص ١٩٥

^٢ الشخصية في القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية، محمد سعد الزهراني، مطبوعات النادي ٩١

دبي في الطائف، ١٤٣٤، ص ١٥

لا تختص بشخص معين، بل قد يدمج أكثر من شخص لتكوين الشخصية، وقد لاحظ روائيونا سطحية الشخصيات في أغلب المنجز الروائي قديماً فاتجهوا إلى التركيز على الشخصية، ومحاولة الاستفادة من منجزات علم النفس التحليلي في بناء شخصية إشكالية تجمع بين المتناقضات، وتُثير الأسئلة فهي شخصية - في الغالب - مُتقفة تحمل إيجابية الرؤية و سلبية التنفيذ.

الشخصيات ودلالاتها:

تعد الشخصيات مدخلاً لفهم أي نص من النصوص؛ فهي إلى جانب تفعيلها للسرد تفقد الحكي، وتتحكم فيه، فتصوراتها ووجهات نظرها وأفعالها تأتي بصورة مدروسة دقيقة؛ لترسم الشكل الكلي للرواية، وتقدم فكرة العمل الرئيسة للمتلقي، ولا يعني قولي "تقدم" بأن معاني النص الإبداعي تأتي "على طبق من ذهب" للمتلقي، بل الأمر أصبح أكثر تعقيداً في الرواية الحديثة؛ فالمبدع يختار لشخصياته صفات متناقضة، وأفكاراً مشوشة، ورؤى غامضة، ويشحن لغته بالرموز، ويجعل فضائه النصي رمادي المقاصد.

أمّا ما يلفت النظر في رواية الغيمة الرصاصية فهو تفرّد شخصياتها وتميزها عن رواياتنا المحلية، فلم يعتمد الكاتب لإسناد الدور الرئيس لشخصية بعينها بشكل مطلق، وجعلها في بؤرة الاهتمام دون غيرها؛ فهم متقاربون في العناية، وقد قصد الكاتب من ذلك الكشف عن وعيهم ودور كل شخصية - بما تحيل إليه من رموز - في الموضوع الرئيس للرواية، وهو حرب الخليج، وهي شخصيات جاوزت منطقية الأفعال القصصية؛ فخرجت من نصها وتمردت عليه، ورسمت لنفسها طريق لم يخطه لها مبدعها، يسعى كلا منها لتحقيق أهدافه التي تتعارض مع غيره؛ فيحدث الصراع بينها ويقف مبدعها - سهل الجبلي - موقف المحايد غير القادر على إعادة الأمور إلى نصابها.

ومن الشخصيات الدالة في رواية الغيمة الرصاصية شخصية سهل الجبلي وتزوير التاريخ؛ وهي شخصية مدورة وهي أول شخصية تطالعنا في الرواية، وآخر شخصية تختتم بها الأحداث، وبين البداية والنهاية نرى لها تحولات في الدلالة والرموز والدور الذي تقوم به.

أول ما يستوقفنا في هذه الشخصية هو أسمها المركب من وحدتين متناقضتين (سهل ، الجبلي) فكأن الكاتب أراد منذ مطلع الحكى أن يُخبرنا بأننا أمام شخصية ليست عادية، تحمل تناقضات ليس في تكوينها وأدوارها فقط، بل في رموزها كذلك. أعطانا الراوي بعض صفاته فهو كاتب، مثقف، موظف في البنك، له آراء سياسية وتنظيمات سرية، تعرض في كل منها-أعني صفاته-للمواجهة والاصطدام بعائق ما:

ثم تأتي شخصية سهل الكاتب، وهي تتمثل في:

*الذات الفاعلة/ سهل.....الموضوع / الكتابة

*العامل المساعد/ موهبته.... العامل المضاد/ النقد

وقد طرح الروائي هنا جانباً مهماً من شخصية سهل/ الكاتب، الذي يتعرض لسيل من النقد لكتابات من أناس لا يملكون حساً أدبياً، ولا فهماً، ومن ثم لا يمكنهم استيعاب إبداعه فيقول: " حينما نشر الراوي هذه الرواية تعاوتها رماح قبيلة النقد، فكتب أحدهم عنها: رواية مثقلة بالرموز والشخصيات المتناقضة، ونصح الراوي بحذف فصل الأصدقاء و تدوينات الزوجة، ففعل، وقال ناقد ثان: أقم الراوي نوره في سياق لا تنتمي له، واختلطت بدور عزة فحذف الراوي فصل نورة"^١....ويستمر النقد بانتقاد كل الشخصيات، ويجاريهم الكاتب ويحذف أجزاء من العمل إلى أن " يقرر أن ينشر الجزء الذي لم يُطالب باستبعاده، وحينما جمع ما تبقى لم يكن ذلك أكثر من غلاف الرواية فقط، غامر بنشرها وصفق النقد للرواية الجديدة واعتبرها بعضهم فتحاً روائياً وأسماها ناقد شاب رواية" الصمت الفاتنة"^٢ .

حمل النص السابق سخرية تسعى إلى توليد آثار دلالية تتراوح بين معنى ظاهر و معنى آخر، يكون مرتبطاً بقصدية الكاتب؛ فظاهر الكلام إذعان الكاتب لنقاده وتنفيذه لأرائهم، لكن المعنى الأعمق هو محاصرة قلم المبدع وتضييق أفاق أفكاره بل محاولة توجيهها، وانشغال النقد بأمور جزئية، وعدم محاولة فهم رموز العمل، وأبعاده، ودلالاته، ويدلل الكاتب على سطحية نقاده بقوله" استبد به غضب نزق، فقرر هجاء

^١ الغيمة الرصاصية، علي الدميني، ص ٢٠٢

^٢ السابق، ص ٢٠٣

النقاد بقصيدة عمودية غير عصماء، ولما نشرها انشغل النقاد بتفكيك الغامض في تشكيلها، ولم يفتنوا لبنية الهجاء القصدي القابع تحت حروفها! ^١ .

أما شخصية سهل الناشط السياسي، فهي تتجلى في:

*الذات الفاعلة/ سهل.....الموضوع/ الانضمام لتنظيمات سياسية

*العامل المساعد/ رفقاء التنظيم.....العامل المضاد/ السجن

على أن المحاور السابقة تعرف سلفاً لدى لقارئ بالنمط الذي ينتمي إليه في رفض سياسات الدولة، وتكوين تنظيمات لحركات سريه ونحو ذلك ويكون -غالباً- السجن مآله، وهذا ما حصل لسهل فقد سُجن وتم التحقيق معه ولبث في السجن زمناً طويلاً، لتبنيه هو ورفاقه الفكر الشيوعي الإصلاحية، السؤال هنا هو ماذا أضاف هذا الجانب السياسي على شخصية سهل وعلى العمل بوجه عام؟

أراد الدميني أن يقول هنا أن الحديث عن السياسة هو من التابوهات المحرم الاقتراب منها أو التفكير فيها، وللسياسي كما للأديب سقف من الحرية بيد أنه منخفض بشكل واضح وأن خالف ذلك معتقداته وعارض مبادئه، وهذا يتقاطع مع جانب من سيرة الدميني فكان له آراء سياسية دخل بسببها السجن!

يكن الإبداع في هذه الرواية في قدرة الكاتب على خلق نوع من التشابك بين هذه الصفات وعواقبها في شخصية سهل في النص الإطار، وبين معاني ودلالات تتناسل عنها في النص المشطور فيكون التحول على هذا النحو:

*سهل/ الكاتب.... الباحث التاريخي/ التاريخ ذاته

*سهل/ الناشط السياسي الشيوعي.... الباحث عن سر حروب الوادي/ موقع السدّ

يتضح التحول في الرمزية من سهل الكاتب إلى الباحث التاريخي عند اختطافه على يد مسعود الهمداني؛ إذ يقول لمرافقه " هذا الرجل كتب نص عزة، وأدخل وادينا في مشاكل كثيرة، وهو يدعي العلم والمعرفة فاتركه يتلهى بأحجاره وراقبه عن كذب ^٢ ."

يغرق الوادي في الحروب والصراعات بين القبائل وتخرج الشخصيات عن أدوارها التي حددها لها كاتبها-سهل/التاريخ-وتلقي باللوم عليه؛ فهو الذي فرض عليها هذه الصراعات، ولن تتوقف حتى يُكمل نصح، ويُخرج عزة منه، " يقول مسعود لسهل:

^١ السابق، ص ٢٠٣

^٢ الغيمة الرصاصية، ص ٢١

أنت تتسلى بي وبعزة في نصك فخلطت بين رؤوس البشر ورؤوس الغنم حتى أدخلت الوادي في معركة سألت دماؤها وحملتني تبعاتها وديات قتلاها^١ .

يتغير دوره بعد ذلك لتصبح مهمته البحث عن سرّ حروب الوادي وعن المتسبب الحقيقي فيها، يقول سهل لأبي مريم: " لماذا لا تزرعون تلك الأرض الواسعة القريبة من الماء بينما تتقاتلون مع أهل العبادل على الأرض الوعرة البعيدة عنه، فرد عليه قائلاً: تلك الأرض مهددة بالسيول حين تفيض من أعالي الوادي، ولكننا موعودون برؤيا السد وموقعه...^٢ ". هناك عدو قادم وهو السيل الذي سيحتاج الوادي ويغرقه ولا بد من بناء السد للتصدي له، ولكن موقع السد مجهول وعزة مفقودة، ويستحيل إخراجها من نصّ محرف وغير مكتمل، وهناك من له مصلحة في تحريف هذا النص لمنعها من الخروج، ورغم خطورة الموقف ينشغل أهل الوادي بأمور ثانوية وحروب داخلية صرفتهم عن الخطر الحقيقي القادم!

أما شخصية عزة والعزة المفقودة، فتتشكل على هذا النحو:

*الذات العاملة/ عزة.....الموضوع/ التحرر من النص

*العامل المساعد/ سهل.... العامل المضاد/ تحريف النص/ ابن عيدان

وقد سار العاملان في صراع من بداية الرواية حتى نهايتها، ولم يستطع سهل إعادة النص على حالة، أو شطب ما حُرف منه ليُخرج عزة، شخصية عزة مدورة، مرّت بتحويلات كثيرة، سعت من خلالها للتحرر والعودة للوادي، وفي أثناء ضياعها داخل النص وحروفه تقول هي عن نفسها، " هنا في تابوتي الورقي تلتف حولي أحلام سهل الجبلي، كسرت قيد الوادي في صباي، وحينما لمست الربيع في قلبي فتحتة لحمدان يقبله في الصباح باتجاه المراعي، ويدفنه في المساء في صدري، هربت من مصائري إليه و منحته كل شيء لكنه لم يلمس من لهبي بعدُ إلا ما بين النهدين وأنا لم أئل منه إلا نيران أصابعه^٣ ". عزة هي الوجه الثالث لنوره ومريم فهي تجمع بين الأصالة والحضارة والعزة المهذدة.

^١ السابق، ص ١٦

^٢ السابق، ص ١٥٠

^٣ السابق، ص ١٨٧

هي مختلفه أيضاً مثل سهل/ التاريخ، غُيبت ملامح نصها الحقيقية بشكل مُتعمد؛ لأن وجودها سيُغير دفة الأحداث بشكل لا يتوافق مع أقطاب الصراع، ومن له مصلحة في تغييبها، كانت محل أطماع غطرسة الداخل/ مسعود الهمداني، وخيانة الخارج/ حمدان، وفي الوقت الذي يتوقع القارئ خروجها لتزايد الحاجة إليها مع تعقد الأحداث، يُصدم باختفاء تام لصوتها، واختطاف نصها من جديد.

ويبرز هناك من الشخصيات الحيوية مريم/ نورة الحضارة والأصالة، وتشكل مريم رمز الأصالة في الوادي، بينما ترمز نورة للحضارات القديمة البابلية في العراق، " حين حملت إلي نورة قهوتها وأيقونتها الفخارية تلمع في وسطها خرزة زرقاء ليست منها، ولكنها علامة من علامات حضارة قديمة^١ "، الحضارة والأصالة لا يمكنهما النماء والاستمرار في الحروب وهذا ما يُفسر حزنهما -أعني نورة ومريم- عند حروب أهل الوادي، تقول نوره في حديثها عن جداتها إنهم تنقلوا كثيراً هرباً وخوفاً من الحروب على الأبناء، "وبعيداً عن تراث الدمار هربت بنا جدتي الثالثة في مركب صغير إلى أسفل ملتقى النهرين، واستقرت سلالتها على أطراف الماء والصحراء..."^٢.

*نورة/ الحضارة.... الموضوع/ دخولها كافة مناحي الحياة

*العامل المساعد/ سهل..... العامل المضاد/ رغبة كل طرف بامتلاكها لوحده

فقد عاشت نوره صراع من نوع مختلف، وهو محاولة احتكارها، ومنع انتشار نورها لكل مكان، فابن عيدان/ السلطة كان يطمع في الزواج منها وعزلها عن الوادي، وسهل كان يُلاحقها ويفكر بطريقة لإدخالها في نصه، وعبيد الراعي/الشاعر يريد لها لنفسه، وجابر يستجدي مساعدتها في تنفيذ فكرة التعاونيات، لكنها ترفض كل أنواع الامتلاك تقول: " أنا لا أنكر أنني سلالة ذلك الإرث الطويل الذي أحمله وأحمل جداتي فيه وأنصت لهن بسببه، ولكنني الوجه الآخر للأشياء، الوجه غير المحدد، والملاحم التي أسعى لكيلا تتقنع بأي ستار^٣ ".

وعلى هذا النحو تكون:

*مريم/ الأصالة.... الموضوع/ الزواج من مبروك الراعي

^١ السابق، ص ٢٦

^٢ السابق، ص ٢٤٢

^٣ السابق، ص ٢٣١

*العامل المساعد/ حبهما.... العامل المضاد/ السلطة الحاكمة/ ابن عيدان
فقد جاءت شخصية مريم معقدة ألبسها القاص متناقضات تتسجم مع طبيعة الدور الذي
تؤديه، فهي ترمز للأصالة والتمسك بالعادات والتقاليد على الرغم من كونها بنت أمة
"أقبلت مريم فأسفر وجهها الخلاسي الأسر الذي ورث من أمها "أمة" ابن عيدان سمرته،
ومن أبيها عريفة الرملية، الذي ألحقها بنسبه، شيئاً من بياض الوجه والأنف
المستدق...^١."

إنها تعيش صراع بين التمسك بأصالتها وبين التحرر منها، تعشق مبروك الراعي
ويُسجن في مغارات أبو عاصم وأبو معصوم ويُستدعى سهل كونه كاتب هذا النص
ويسأله أبو عاصم: "لماذا جعلت مريم ابنة عريفة الرملية تتعلق بحب مبروك حارس
ابن عيدان الأمين وموضع ثقته؛ فتفقد علاقة كريمة، وتبذر الشقاق بين الرعاة
والموالي وأسيادهم في الوادي^٢."

تدرس الانثروبولوجيا العامة علم الحضارات والمجتمعات البشرية كما هو
معروف، ويمكن القول بأن الكاتب هنا على وعي بذلك عند تركيبه لشخصية "مريم"
بالذات، فهي بهذا التركيب النصف أفريقي تعكس تركيبة المجتمع في جزيرة العربية،
فبحكم موقع الجزيرة الجغرافي في الوسط بين الشمال الأوروبي والجنوب الأفريقي
أخذت من سمات وخصائص كلا الطرفين، فكان ميلها للحروب والنزاعات لتأثرها
بالجانب الأفريقي وهذا ما يُفسر استمرار الصراع في المنطقة إلى اليوم، وهذا ما
عكسته الشخصية " مريم" كذلك شكلاً كما ذكرت آنفاً، وفعلاً في عجزها عن منع عطية
وأبنائه من توسيع مزرعتهم، وسرقة ما جاورها من أراضٍ " كان زوجها السابق
وأبناؤه يعملون على توسيع مزارعهم، وقد أعياهم اقتلاع صخرة تقع في طرف مزارع
الرملية...قالت مريم يا عطية هذه الصخرة هي الحد الفاصل بين أهالي "الرملية" وبين
قريبتكم، فبحق ما بيننا من عشرة أن تتركوها ولا تعتدوا على أراضيهم، لئلا تشعوا
فتنة نائمة، نهرها أبناؤه الكبار ومضوا يوسعون مزرعتهم غرباً في أرض الرملية^٣ ".
وتتجلى أيضاً شخصية ابن عيدان والسلطة المطلقة وهي تتميز بما يلي:

^١ السابق، ص ٦٠

^٢ السابق، ص ٤٤

^٣ السابق، ص ٦٦

*ابن عيدان.....الموضوع/ السيطرة والنفوذ والسلطة
*العامل المساعد/ جهل أهل الوادي/ ابو عاصم وأبو معصوم / الفقيه عمران....
العامل المضاد/ عزة

ويعد ابن عيدان شيخ جميع القبائل، وصاحب السلطة المطلقة المركزية، يتحكم بأهل الوادي اجتماعياً واقتصادياً، "كان يأمر حراسه بإعادة وضع الأحجار؛ ليرتفع منسوب المياه، ويندفع في قناة شقوها على سفوح منحدرات الجبل الكبير؛ حتى تصل إلى أسفل قلعته؛ فيتم له من هناك توزيع الماء في قنوات صغيرة أخرى على قرى الوادي¹".
وقد كانت شخصية ابن عيدان شخصية أعمتها السلطة وحب النفوذ عن الأخطار الحقيقية المحدقة بالوادي، إذ لم يكن حريصاً على خروج عزة لتشير إلى موقع السد؛ فشارك في تحريف النص، وعندما اجتاحت السيول الوادي كان تفكيره وخوفه من ضياع نفوذه، وأمن الوادي -لتكسر مرايا الدش الذي يراقب به أهل الوادي- أكبر من تفكيره في مواجهة السيل/الخطر في حد ذاته!
ونلتقي كذلك مع شخصية مسعود الهمداني والقوة المتغترسة، وهي تبرز في الرواية على هذا النحو:

*مسعود الهمداني.....الموضوع/ السيطرة على العزة
*العامل المساعد/ البطش، إغراء سهل/التاريخ.....العامل المضاد/ السلطة/ابن عيدان/ حمدان

وترمز هذه الشخصية للمتسبب في الحرب والداعي لها، وهو في حرب الخليج "صدام حسين"، فقد قاده أطماعه إلى قتل أخوة عزة، وسرقة أغنام سهل والهروب بها، ومحاولة الزواج من عزة بأي ثمن، بالإضافة لتغييره مجرى التاريخ باختطافه سهل فهو كما تصفه عزة "كان شغفه بي قد أغطش بصيرته، ووضع في مرتبة أسد الغابة المتربص بفريسته، وحين لم يكن يفصل بيننا سوى صفحات قليلة، مطاردته لي دفعتني لتجميع جملي وحروفي وصفحاتي؛ لأتهرب منه إلى جوار غلاف القصة وأنا ألعن الحظ. ينام مسعود باكراً وعن عمد؛ ليتفادى صراع الكتاب وأبطال الروايات على الأرفف المجاورة، ويصحو في الوقت الملائم عند الفجر؛ للاختلاء بي خلال غفوة

¹ السابق، ص ٤٨

الجبران^١ ". وهذا يشير إلى وقت غزوه للكوييت بحثاً عن عزة هشة لكن ما حصل هو هروب العزة وضياع تاريخها.

أما شخصية حمدان: الآخر وبؤرة الصراع، فنتشكل على هذا النحو:

* حمدان.... الموضوع/ الاستعمار بشكل جديد

* العامل المساعد/ ثقة ابن عيدان.... العامل المضاد/ عزة/ نورة/ مريم/ جابر

ويعد حمدان هو الآخر/أمريكا، المضاد للأصالة والحضارة القديمة؛ فهو يسعى في الظاهر لتطوير الوادي، لكنه في حقيقة الأمر يريد السيطرة على المال والتعليم والأعلام، يحاول تفسير سبب قدومه للوادي بأنه جاء لتلبية النداء " ربح ابن عيدان به وقال: لقد تجاوزنا عن عقوقك وشطحات لسانك حين أظننتنا عودتك...رد عليه حمدان شاكرًا، وأوضح أن الأمر لم يكن بيده، ولكنه لبي نداءً غامضاً خرج من الشرق^٢ ، لكن تلبية هذا النداء هو جزء من الحقيقة فقط أما الجانب الآخر يتضح بعد ذلك في إنشائه لقرية "راشد" وإقامته مدرسة يقوم هو بنفسه وزوجته بالتدريس فيها، فكان هذه القرية التي بناها حمدان استعمار من نوع جديد يسيطر على العقول أولاً ثم على خيرات البلاد .

ثم نلتقي عبر الرواية بشخصية جابر وفكرة التطوير وهي تأتي في هذا الإطار:

* جابر.....الموضوع/ تطوير الوادي /إنشاء جمعيات تعاونية

* العامل المساعد/ محاولاته المستمرة.... العامل المضاد/ حمدان/ أبو محماس وعطية/

وهما معاً يرمزان لأصحاب الأملاك المعارضين لفكرة التعاونيات

حمل جابر همّ التطوير للوادي وكان أميناً لدوره الذي وضعه فيه سهل يقول: "لم أزل كما وصفنتي منتظراً أهلة الخير وسعادة الناس وتطور الوادي^٣ "، يحاول أن يفي بدوره لكنه لا يستطيع فالعوائق أمام فكرة التطوير كثيرة لا سيما أصحاب الأملاك والأغنام الذين يقفون ضد هذه الفكرة ويحاولون منعها.

وتبرز من خلال الرواية شخصية زوجة سهل وتغريب المجتمع، وتتميز بما يلي:

* زوجة سهل.....الموضوع/ البحث عن سهل/ توعية المجتمع

^١ السابق، ص ١٨٨

^٢ السابق، ص ١٥٩

^٣ السابق، ص ٣٥

*العامل المساعد/ وجود عزة/ عملها/ثقافتها..... العامل المضاد/ غياب سهل/ إجراءات حمدان

وتتميز شخصية زوجة سهل بأنها شخصية متحولة مرّت بتغيرات عدة، وهي الشخصية الوحيدة في النص التي لم يسميها الكاتب، وذلك له علاقة بالمعنى الذي تمثله، فهي المجتمع الخليجي بصفة عامة، والسعودي بصفة خاصة، حاولت القيام بدورها ومساعدة سهل في كل محنة يمر بها، حتى بعد أن اختطف على يد مسعود بحثت عنه ولم تيأس، بقيت تحرس عزة ونصها إلى جانب تربية أطفالها.

وفي ظل التغيرات السريعة التي مر بها المجتمع دخلت مفاهيم جديد لم يستطع استيعابها فحصل نزاع وصراع حول مشروعيتها مثل قضية الحادثة، حاولت زوجة سهل أن توضح ماهية الحادثة من خلال عملها، فهي مُحاضرة في إحدى الجامعات، فأرادت أن تُلقي محاضرة بعنوان " الحادثة مالها وما عليها"، لكنها منعت من إلقائها وحاولت نشرها في الصحف المحلية لكنها رفضت هي الأخرى نشرها بحجة المحافظة على الأمن الاجتماعي والثقافي! تقول: " قلت لرئيس التحرير أنك تُغلق باب نور الحوار وتُسهم في تسميم المناخ الاجتماعي والثقافي نفسه من حيث تريد أو لا تريد¹، " قاومت إجراءات حمدان المتكررة لها ولعزة، لكنها تخلت أخيراً عن معتقداتها ومسؤولياتها، وأهمها زواجها من سهل؛ لأنه هو من تركها وحيدة بلا سند، فاستجابت لإجراءات حمدان وعاونته في إقامة القرية الجديدة "راشد".

وهناك عدد من الشخصيات التي ظهرت في الرواية، منها أبو عاصم وأبو معصوم رمزا الحسبة، ونراهما تأتبان على هذا النمط:

*أبو عاصم وأبو معصوم.... الموضوع/ الحفاظ على أعراف/أمن الوادي

*العامل المساعد/ ابن عيدان/ تحريف النص.... العامل المضاد/ تمرد بعض الشخصيات على الأعراف من مثل مبروك/ صفوان وهما معاً يمثلان رفض الأعراف العنصرية.

وقد كانت الشخصيتان عوناً لأبي عيدان في حماية أمن الوادي ومن تلاميذ الفقيه عمران، وهما رمز للسلطة الدينية في الرواية كذلك.

¹ السابق، ص ١٠٤

وشخصية عبيد الشاعر والثقافة المحرمة، إذ هو المتقف المطارد من قبيلته يقول: " لقد مدحت القبيلة وأعلامها فأحبوني وحينما أطلقت لشيطان شعري عنانه، ولقبي لسانه يتغزل بالجماليات خشي الناس على زوجاتهم من شعري فقررنا قتلتي...^١ ".

وشخصية أم سالم البحث عن السلام، وهي رمز السلام والداعية إليه وهي الحضارة بجانبها التاريخي الساعي إلى نبذ خلافات القبائل وصراعاتها يقول سهل عنها " استقبلتنا أم سالم وأخذت البعيرين إلى جوار بعارينها، وسألتنا هل تُقسمان بألا تُشعلا حرباً ولا تُشاركنا فيها؟ فبادرتها بالموافقة أما مسعود فقد صمت...^٢ "، سعت إلى ما ينفع الناس من مبادلات تجارية في المحطة ومساعدة للقادمين إليها والمسافرين منها " عَجَّ المكان بوجوه متميزة السحن وأجساد مختلفة الملبس بيد أن اطمئناناً رقيقاً قد لفهم فأخذ بعضهم يسرد حكاياه للآخرين، بعضهم أتى في قافلة من الشحر عن طريق الفاو تحمل البن واللبان، وبعضهم أتى عن طريق عُمان محملين بالبهارات والليمون الأسود والفلل الهندي والتوابل...تقايضوا وتبادلوا حاجاتهم من مختلف البضائع...^٣ ".

أما محطة أم سالم في أبعادها الثقافية والاجتماعية والتجارية والسياسية فإنها تُشير إلى الأسواق العربية القديمة "ذي المجاز وعكاظ ومجنة"، بما فيها من تمثيل حضاري لتلك الفترة من حياة العرب وهذا ما يُفسر رعاية أم سالم لنوره/ الحضارة فهي الامتداد الطبيعي لهذا المنطلق من وسط الجزيرة العربية للعراق وبابل؛ إذ تقول: " رعتني أم سالم كابنتها وكما تراني استمتع بحياتي معها فأرعى الغنم نهراً وأعد القهوة للقوافل المسافرة ليلاً وأنس لحكايا التجار والصعاليك...^٤ "، ماتت أم سالم وانتقلت نورة إلى الوادي، بنيت مقهى مع عبيد الشاعر وأصبح مركز تجاري "كثر الرواد وحمل الكثيرون معهم قفافاً صغيرة من خوص ملأنة بأنواع مختلفة من الفواكه والخضروات، كانت نورة تقيّم سعر كل "قفه" بمكيال جرة الجدات...^٥ "، وأنعش المقهى كذلك حياة الوادي الرتيبة فقد أصبح مقصداً للشعراء والسمار" كان ضوء المشاعل الصغيرة يتكئ

^١ السابق، ص ٤٩

^٢ السابق، ص ٢٢

^٣ السابق، ص ٢٢

^٤ السابق، ص ٢٨

^٥ السابق، ص ١١٨

على أعمدة المقهى، وكان جسد نورة البابلي يصب الطرب والنشوة في أفداح الرواد حيث حلق فوق أسرجة خيول صوت عبيد الراعي وأشجان "تايه" التهامي الجارح^١.
أما شخصيات الأصدقاء في هذا الجزء من الرواية فتتجلى في مناقشة الكاتب لتداعيات الحرب وفق منظور هذه المجموعة من الأصدقاء إذ يحمل كل واحد منهم أفكاراً ورؤى تختصر الحرب وما نتج بعدها من قضايا ومستحدثات انشغل بها المجتمع السعودي آنذاك، وقد تمكن الدميني من خلق قواسم مشتركة بين شخصيات الأصدقاء وشخصيات أهل الوادي، فحدث التداخل بينهم كما سنرى.
ونذكر من هذه الشخصيات شخصية أبو أنس والمنظور الديني، وهي تتشكل على هذا النحو:

*أبو أنس أبو عاصم وأبو معصوم السلطة الدينية المقاومة للآخر وللتغيير والمحافظة على الأعراف

وقد حملت هذه الشخصية مسؤولية انتقاد السياسات الخليجية، واستعانتها بالقوات الأمريكية في الحرب، لما لذلك من تداعيات تهدد المنطقة وتغير قيمها الدينية وتزحزح معتقداتها" المأساة يا أخوان إنا طردنا الروس من أفغانستان فسَلَّط الله علينا في بلادنا المقدسة الجيوش الأجنبية، وهذا جزاء تفریطنا في الالتزام بشريعة الإسلام^٢.
ونذكر أيضاً مصطفى وسلبية المثقف، حيث نجده هكذا:

*مصطفى منصور وسعيدان، محاولة تغيير معادلة القوى بين أقطاب الصراع وترمز هذه الشخصية للمطبلين لحرب الخليج آنذاك من العرب الذين كانوا يرون في صدام قوة عربية لها من النفوذ والسلطة ما يخولها احتلال الكويت وضمها لأراضيها" حلق جاسم في وجه مصطفى وقال: لو أنك و أمثالك من المثقفين العرب غسلتم غشاوة العواطف العمياء عن عيونكم وصرختم في كل العواصم العربية لا للحرب ... ولا للاحتلال بالقوة وطالبتم صدام بالانسحاب لانسحب، لكنكم دفعتموه ليلع السيف الذي وضع فمه عليه وصورتم له النصر قاب قوسين أو أدنى فخشي أن تتحطم

^١ السابق، ص ١١٦

^٢ السابق، ص ١٣٩

صورتها التي أوهمتموه بها وأحجم عن الانسحاب خشية سقوطه عن صورة الفارس العربي الذي أوهمتم بها الشارع العربي^١ .

تأتي شخصية خالد والبحث عن العزة المتجددة كالتالي:

خالد.....سهل/ الباحث عن التاريخ

وهي شخصية جاءت امتداد لشخصية سهل، الباحث عن التاريخ، الكاشف عن رموزه لاستيعابها ومعرفة الأسباب الحقيقية التي تُعيق خروج العزة" شغلته الكتابات المتناثرة على أوراق الجلد وعلى قطع جرار فخارية مكسرة، جمع أجزاء متناقضة عن عزة، ووجد أطرافاً من سيرتها لكنها مقطوعة التراسل^٢ .

أما شخصيات الرواية وعلاقتها بالأحداث فإن الرواية تناولت أحداث حرب الخليج لكن الشخصيات التي وظفها الكاتب هنا جميعها ذات أبعاد رمزية دلت على أقطاب ذلك الصراع كما سبق، وفي عرض علاقات الشخصيات ببعضها يتضح كيفية تداخل النصين "الإطار، المشطور" وانقسام الأصوات / الشخصيات فيه إلى سلبية، وإيجابية، شكل اجتماعها ونزاعها جملة من المفارقات قادت الحكي للحظة شديدة التعقيد، ليصل بعدها إلى نهاية مفتوحة حملت تأويلات متعددة، أقربها للصحة في رأيي هي استمرار التاريخ في البحث عن لغز اختفاء العزة، وأن سبب اختفائها ليس تحريف النص/ التاريخ بل هو عدم استيعاب إرثنا التاريخي والحضاري بشكل يتناسب مع حاضرنا ومستقبلنا!

بداية الأزمة في تصور الرواية هو رغبة شخصيات بعينها الاستحواذ على العزة، وكأنها إرث شخصي ومحاولة نزع عراها الوثيقة بالأمة العربية كافة، يتمثل ذلك بمحاولة مسعود الهمداني اختطاف سهل وأخذ ماله ثم تحميله جريرة الحرب بحجة كتابته النص بهذه الصورة، وملاحقته لعزة الدائمة الهرب منه، وقتله في سبيل الزواج منها إختوتها.

ابن عيدان بسلطته المركزية يحاول كذلك الاستيلاء على عزة وإخضاعها لسلطانه، فعلاقته بها تكمن في خوفه منها، ولم يكن يسعى كغيره لإخراجها من نص سهل، "حلم ذات ليلة فرأى عزة تشير إلى موقع السد، وهو يمتد من باب المغارات إلى

^١ السابق، ص ١٣٦

^٢ السابق، ص ١٦٨

حوش القلعة، وأبصر جدران القلعة تتهاوى تحت ضغط الماء، فأيقن أن عزة تهدد وجوده، وتمنعه من التحكم في الماء والمصائر. لذا لم يعد متحمساً لخروجها من كتاب سهل، "لذلك عمل على تحريف النص وكتابته في "كتاب السجلات" وحفظه تحت قلعته، ووضع حراسة مشددة لئلا يصل إليه سهل ويشطب ما حُرّف منه، وكان جابر- على العكس من ابن عيدان-وفياً لدوره في النص وعمل جاهداً ليخرج عزة من نصها، لعلمه بقدرتها على تغيير الأحداث، وإنقاذ الوادي من الحروب الداخلية ومن السيل القادم المُدمر، عمل على تطوير الوادي وتحسين مستوى أهله رغم تعرضه لكثير من العقبات.

وجاء حضور الآخر هنا بشكل فيه إيهام بضرورته ومشروعية وجوده، يقول حمدان أن سبب وجوده في الوادي هو تلبيته لصوت قادم من الشرق، وفي هذا تبرير لدخوله، ثم بدأت الأحداث تكشف عن وجهه القبيح بداية في إظهار مودته لعزة، ومحاولته إغوائها والإيقاع بينها وزوجة سهل "يتحدث حمدان مع زوجة سهل الجبلي فتبادلته الحديث بدفء وارتياح يغطيني بغيوم الغربية والغيرة، فأتساءل مع نفسي عن سر هذه العلاقة بينهما^٢".

فقد حمل حمدان فكرة التغيير على عكس جابر الذي كان يرى أن الوادي بحاجة أدعى للتطوير لا التغيير الجذري! بدأ حمدان بإنشاء مدرسة خارج الوادي يقوم فيها وزوجته بتعليم أهل الوادي، وفي ظل مُباركة ابن عيدان لهذا الرأي قابل أبو عاصم وأبو معصوم وبعض أتباعهم مشروع المدرسة الليلية بالسخرية، وفي سعيه الدعوب لتغيير الوادي أقام حمدان مزرعة كبيرة في قريته التي أطلق عليها اسم "راشد" بجانبها عريشة واسعة وأشعل موتور الكهرباء فأضاءت مصابيح عتمات المكان، وأسس فيها شركة للمقاولات وأخرى زراعية، عمل حمدان على الاستيلاء على العقول وخيرات الأراضي وإلهاء أهل الوادي عن عزة وعن موقع السد!

أما نورة فقد شنقت نورة نفسها بحبل كهرباء حمدان " تقول مريم لسهل: بأن ابن عيدان يبكي على نورة ويهذي بأنه قتلها ... وقال بعض أهل الوادي أنهم رأوا أبا عاصم وهو ينتحب على قبرها، وأن الفقيه يندبها بعد كل صلاة ويسر لمن عن يمينه

^١ السابق، ص ١٥٢

^٢ السابق، ص ١٦٩

بأنه قاتلها، واتهم أهل الوادي سهل الجبلي وعبيد الراعي...^١، فقتل الحضارة كان مشتركاً بين كل هؤلاء، فلا مكان لحضارة عريقة في مكان يسعى أفرادها لتحجيم دورها وطمس معالمها وتزوير تاريخها!

أما سهل فقرر بعد فشله في إكمال النص وشطب أجزاءه المحرفة الرحيل وترك الوادي، ولكنه صادف مريم التي أطلعتة على حملها، "ها أنت تتسلل هارباً إلى خارج الوادي رغم أنني قد عولت عليك كثيراً لمساعدتي، لقد فكرت في إلحاقه بنسبك فأنت تعرف موقعك بينهم ولن يجرؤ أحدٌ على انتقاده أو لومي إذ كان هذا جزءاً من لعبة قصة عزة...^٢ " ويزداد الأمر تعقيداً عندما تستدعي زوجة حمدان سهل ليتفاجأ بأنها زوجته؛ ليكتمل لحمدان بذلك على السيطرة على التعليم، والاقتصاد، والحضارة، ووعي المجتمع.

وبالنظر إلى العنوان " الغيمة الرصاصية" نجده يظهر عندما خرج سهل من خيمته فرأى ضباب رصاصي كثيف يغطي ما حوله، عزلته الغيمة الرصاصية عن الوادي، لمسها فوجدها يابسة من ورق وحروف ونقط حبر أزرق، وكانت أصوات أهل الوادي تصله صافية وقريبة، سرى خبير اختفائه في القرى؛ فاشتغل الناس بالكلام والتأويل لليال طويلة، يقول سهل " في غفوة امتدت حتى خلتها قروناً ارتجف بدني لصوت رعد وحطام، وكانت الغيمة الرصاصية تتهاوى أمام عيني قطعاً متناثرة كالهشيم...^٣ ". تبدو هذه المرحلة هي التي غُيب فيها التاريخ لينهض على وقع حروب أهل الوادي "وقفت على الصخرة ونظرت إلى أسفل الوادي فرأيت عطية وأبا محماس وأعوانهما يطلقون النار على منزل جابر عريقة الشمالية، فيما خرج أبو عاصم وأبو معصوم من المغارات يصوبون نيران بنادقهم نحو خيمتي ويركضون وهم يطلقون رصاصهم باتجاه قلعة ابن عيدان^٤ "، حمل سهل كيس نورة فوق ظهره و قطع الطريق إلى الرملية، فألقى النساء والمسنين يلوذون بذعر بأسطح المنازل على وقع إطلاق الرصاص القريب، رأى مريم جالسة تحت السدرة تعالج آلام الولادة ويقف إلى يمينها منصور

^١ السابق، ص ٢٥٠

^٢ السابق، ص ٢٦١

^٣ السابق، ص ٢٧٥

^٤ السابق، ص ٢٧٦

والى يسارها سعيدان ، وهما يرمزان للقوة الداعية للتغيير والتطوير لذلك كانا طوال الرواية مسجونين في مغارات أبو عاصم وأبو معصوم، ولا شك أن ولادة مريم تنبئ بولادة أحداث جديدة سيكون لمنصور وسعيدان دور أكبر فيها.

على أن حمدان حاول استغلال الوضع لصالحه وإقناع حراس ابن عيدان بالقتال معه، والحراس هنا هم أبناء الوطن/ الجنود، فقد أسهموا بدور كبير في الحفاظ على أمن الوادي وخروج عزة، لكن التاريخ لا يعرفهم ولا يكتب عنهم فأصبحوا مُهمشين وهذا ما يحزنهم، لكنهم ظلوا أوفياء رغم هذا التجاهل ورفضوا مساعدة حمدان رغم إغراءاته " حان الآن موعد كتابتكم في قصة عزة فاحملوا معنا السلاح وسوف نحرركم بعد انجلاء غبار المعركة ^١".

ولكن سهل يمضي في طريقة فيقول: " رأيت قبوري يتمدد بوقار السنين إلى جوار قبر نورة، رفعت التراب وأعواد الشجر عن الجسد المسجي، ورأيتَه ينام في سكون موحش وإلى جواره كيس يحوي أوراقِي وكسر الجرار الصغيرة، رفعت الغطاء عن وجهه وكان شبيهي تماماً أو هو أنا^٢"، ثم جاءتَه بعد ذلك زوجة حمدان/ زوجته سابقاً لنقول له: " أهرب يا سهل لو علموا أنك هنا لقتلوك"، وقعت زوجة حمدان كذلك بما ترمز إليه ضحية هذه الأحداث والحروب، وقد أخذ سهل جثته المسجاة في القبر وحملها على ظهره، وبعد يومين لحق به ابن عيدان حاملاً أمامه على سنام الناقة كتاب السجلات، تأتي هذه النهاية لتؤكد على ضياع النص وبالتالي استحالة خروج عزة منه، وكان مرحلة البحث عنه ستأخذ دورة جديدة.

تتجلى هنا بداية الرواية بوضوح بما تحمله من معانٍ، فعند خروج عزة من نصها لأول مرة لجأت لسهل/التاريخ، وزوجته/ المجتمع الواعي - وهما معاً يرمزان للسد المنيع الذي يستحيل اختراقه-لكنه طردها من غرفته وأقفل دونها الباب وتركها تائهة في نصه بين الحضور والغياب، تتجاذبها القوى المختلفة. فحُرِف النص في غفلة منه وبقي طوال الرواية في محاولات بائسة لإعادة كتابته!

^١ السابق، ص ٢٧٧

^٢ السابق، ص ٢٨٠

الخاتمة:

وبعد الانتهاء من هذا البحث أرى أن تشطير النص الروائي هو العنصر الفعّال الذي أتاح للروائي خلق شخصيات حملت رموزاً ودلالات متعددة، أغنت العمل الأدبي وعالجت قضية الحرب بشكل بعيد عن المباشرة، ويمكن تلخيص أهم ما توصلت إليه من نتائج في التالي:

١. لعبت الشخصيات الدور البارز في هذه الرواية؛ فهي العنصر المحوري الذي قامت عليه بقية العناصر.
٢. إتقان المبدع فنية الدّمج بين شخصياته في النص الإطار والنص المشطور بحرفية بالغة ساعد على تعدد دلالاتها وتعميقها.
٣. تطور الفن الروائي السعودي وتمكن الروائيين من خلق شخصيات قادرة على مناقشة قضاياها المحلية بعيداً عن المباشرة.
٤. جاءت الطريقة في ترتيب الرواية متوافقة مع الشخصيات الغربية، ففي مفتتح الرواية جاء فصل يحمل اسم "في الختام"، وفي نهايتها جاء فصل يحمل اسم "في البدء" وفي ذلك ارتباط بمقدمة الأحداث، وتسلل عزة من نصها لغرفة سهل وطرده لها. لنكتشف في نهايتها أنه وزوجته السدّ المنيع الذي يحتاجه الوادي لمواجهة التهديد الخارجي.
٥. ارتكاز الرواية على الأسلوب الفنتازي مكن المبدع من خلق شخصيات ذات أبعاد خيالية ترصد الواقع بغموض ورمزية يفتح الباب أمام التأويلات المختلفة.
٦. الشخصيات عند الدميني تميزت بكونها "شخصيات مدورة"، وهذا يعني تغير أدوارها وأفكارها في الرواية، وقد أسهم ذلك في بروز عنصر المفاجئة في الأحداث، وصدم المتلقي بما لا يتوقع.
٧. الشخصيات التي وظفها الكاتب هنا جميعها ذات أبعاد رمزية دلت على أقطاب ذلك الصراع كما سبق، وفي عرض علاقات الشخصيات ببعضها يتضح كيفية تداخل النصين "الإطار، المشطور" وانقسام الأصوات / الشخصيات فيه إلى سلبية وإيجابية شكل اجتماعها ونزاعها جملة من المفارقات، قادت الحكمة للحظة شديدة التعقيد؛ ليصل بعدها إلى نهاية مفتوحة حملت تأويلات متعددة.

٨. طغت اللغة الشعرية على الرواية بشكل لافت، بحيث نرى في بعض المقاطع أننا أمام أبيات شعرية تعمد كاتبها صياغتها بهذا الشكل، وهذا غير مستغرب فالدميني شاعر وله عدة دواوين شعرية سبقت روايته الغيمة الرصاصية.

المصادر :

١. الغيمة الرصاصية، على الدميني، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط، ٢٠٠٥م

المراجع :

١. .إغتراب الذات وحداثة الموروث، جمال سعد محمد، أبحاث المؤتمر الأدبي الثاني ديرب نجم مشترك ٢٠٠٣م ٢٠٠٥م.
٢. البناء الفني في الرواية السعودية دراسة نقدية تطبيقية حسن بن حجاب الحازمي، جازان ط، ٢٠٠٦م
٣. الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عبد المجيد الحسيب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ٢٠١٤م.
٤. الشخصية في القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية ، محمد سعد الزهراني، مطبوعات النادي الأدبي في الطائف، ١٤٣٤ .
٥. فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، بوشعيب الساوري، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٤

، شبكي موقع [www. ar.wikipedia.org/wik](http://www.ar.wikipedia.org/wik) ،

المصادر:

١. الغيمة الرصاصية، على الدميني، دار الكنوز الأدبية، ط٢٠٠٥م

المراجع:

١. .إغتراب الذات وحداثة الموروث، جمال سعد محمد، ٢٠٠٥م
٢. البناء الفني في الرواية السعودية دراسة نقدية تطبيقية حسن بن حجاب الحازمي ، جازان، ط١، ٢٠٠٦م
٣. الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عبد المجيد الحسيب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن
٤. الشخصية في القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية ، محمد سعد الزهراني، مطبوعات النادي الأدبي في الطائف، ١٤٣٤،
٥. فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، بوشعيب الساوري، منشورات الاختلاف، ٢٠١٤
٦. موقع شبكي ، [www. ar.wikipedia.org/wik](http://www.ar.wikipedia.org/wik) ،